الحرب الهجينة وتحدِّياتُها

فرانك.ج هوفمان[1]

ترجمة مركز الخطّابي للدراسات / ٢٠٢٠

[1] Lieutenant Colonel Frank G. Hoffman, USMCR (Ret.), is a Research Fellow in the Center for Emerging Threats and Opportunities at the Marine Corps Combat Development Command.

على اليمين خوذة "كورنيثيان"[٢] تعود لعام ٥٠٠ قبل الميلاد، وعلى اليسار الكولونيل جون واس موسي الملقب بالشبح الرمادي

يعاصر الجيش الأمريكي حقبةً من الزمن تغُصّ بالتعقيدات الهائلة التي ساهمت العولمةُ في توسعها وتمددها، إضافة إلى توافرُ التقنيات المتقدمة، وظهورُ المتطرفين العالميين، وصعود بعض القوى الكبرى من جديد. وتمتلك الولايات المتحدة قوةً عسكريةً تتفوق بها على باقي القوى وتباهي بها. غير أن هذه القوة تخضع اليوم لامتحاناتٍ عسيرة في أكثر من جانب، وكالعادة سيساعدنا الاطلاع على التاريخ في تفسير هذه التحولات، وعلى وجه الخصوص إسهامات "ثوسيديدس"[٣] الوضاءة العابرة لقيود الزمن، والمختصة في تحليل الصراعات والفرص السياسة والطبيعة الإنسانية.

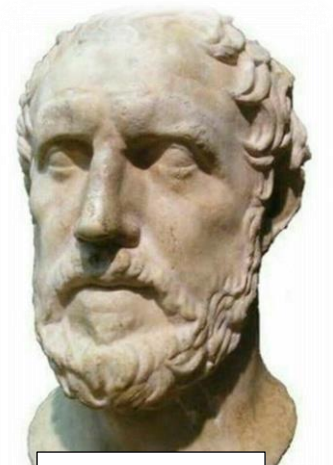

ثوسيديدس

تحدث ثوسيديدس في تاريخه الكلاسيكي بالتفصيل عن الصراع الوحشي الذي دار بين إسبارطة وأثينا، واستمر ٢٧ عاما. في تلك الأيام، كانت لإسبارطة القوة والغلبة لما تملكه من فرق "الهوبليت" التي قاربت الكمال في أدائها، أما الأثينيون بقيادة "بيريكليس"[٤] فقد كان لهم اليد العليا كقوةٍ بحريةٍ مدعومةٍ بالعاصمة المسورة التي

[٢] "كورنثيان" خوذة صنعت في عصر اليونان القديم، وأخذت إسمها من مدينة كورينث حيث صنعت من البرونز بشكل كامل.

[٣] "ثوسيديديس" مؤرخ إغريقي شهير، وصاحب كتاب تاريخ الحرب البيلوبونيية. يعد أول المؤرخين الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة. وقد وقع عليه عبء كتابة تاريخ حقبة مميزة من حياة الحضارة التي ترعرع في ربوعها.

[٤] "بيريكليس" رجل سياسي محنك أشرف على مدينة أثينا، وقد قضى هو وأغلب عائلته بالطاعون الذي اجتاح المدينة.

حوت أسطولاً قوياً من السفن ثلاثية المجاديف، هذا غير ما حظيت به من أموال الجزية من حلفائها.

حذر القائد الإسبرطي أرخيداموس أقرباءه من قوة أثينا البحرية، لكن الإسبارطيين وداعميهم لم يعيروا اهتماماً لتحذير ملكهم. ففي عام ٤٣١ قبل الميلاد تقدم الإسبارطيون بإتجاه أتيكا (تقع على مقربة من أثينا)، ودمروا عقارات أثينا والمزارع المحيطة بها، ثم قام بعدها الإسبارطيون بالتخييم وانتظار طلائع الأثينيين وقواتهم على أمل الالتقاء بهم في معركةٍ حاسمةٍ تنهي الحرب سريعاً.

تعلم الإسبارطيون ذوو الرداء القرمزي أولَ درسٍ لهم في التاريخ العسكري، **وهو أن العدو قادر على الاختيار**. حيث اختار الأثينيون البقاء وراء حصونهم وخوض حرب طويلةٍ دفاعيةٍ تزيد من قوتهم وتضعف أعدائهم. **يُعد كتاب ثوسيديدس الحافل بملاحم الحرب البيلوبونية تاريخاً ممتداً يروي أساليب التكيف العملياتي والتأقلم مع الأحوال المستجدة لكل طرف في سعيه للحصول على تفوقٍ مستدام على عدوه**. وكما وصفها المؤرخ، فإن هذه الدروس الهامة يعدّها المؤلف تحفة الأزمان. فهناك الكثير من الدروس والعبر الواجب علينا استنباطها مستفيدين من مراجعة اللجان المشتركة بين الهيئات العسكرية حاليا، ومراجعات المهام التي تم تنفيذها، ومراجعة خطة الدفاع المستقبلية.

عندما نبدأ بمناقشة حجم القوات المسلحة وشكلها سيكون من المفيد لنا استنباط الدروس الصعبة المنال التي يزودنا بها التاريخ، فأعداء الغد ستبقى لديهم القدرة على الاختيار واتخاذ القرار، وسيبقون كخصوم اليوم ماكرين ومخادعين، وربما سيكونون أكثر فتكاً وعناداً؛ لذا علينا التخطيط على هذا الأساس. ينبغي للمرء عادةً تجنُّب السرديات الكبرى التبسيطية خاصة في الأوقات المتسارعة وغير الخطية (الفوضوية)؛ فحلقة الصراع في وقتنا الحالي تتمحور في التقارب <الذي يسبب الغموض في معرفة ماهية الأشياء> سواء كان هذا تقارب مادي أو نفسي أو حركي أو غير حركي في صفوف المقاتلين أو غيرهم، كما نرى أيضا التقارب في القوى العسكرية والهيئات المشتركة بين الوكالات والدول والجهات الفاعلة غير الحكومية وحتى في القدرات التي يحملونها. وأكثر ما يخص موضوعنا هو أنماط الحرب المتقاربة. فالتصنيفات العملياتية التي كانت مميَّزةً يوماً ما بين الإرهابية والتقليدية والإجرامية وغير النظامية، أصبحت اليوم أقل فائدة.

التفكير الاستراتيجي الحالي.

تتميز أهمية إستراتيجية الدفاع القومي (NDS) 2005 بفهمها الموسع للتهديدات الحديثة، عوضاً عن التركيز التاريخي على التهديدات التقليدية الصادرة عن الدّول، فلقد حددت الإستراتيجية مجموعة واسعة من التحديات تتضمن التهديدات التقليدية، وغير النظامية، والتهديدات الإرهابية أو المخلّة بالتوازن، وقد لخصت الاستراتيجية احتمالية هذه التهديدات إلى جانب اعترافها بضعف أمريكا المتزايد أمام النزاعات التي تمتاز بطرق غير تقليدية. وأشارت الاستراتيجية إلى أن وزارة الدفاع استثمرت واهتمت بالأنماط التقليدية للحروب وباتت بحاجة واسعة لتحويل مصادرها واهتمامها نحو تحدياتٍ أخرى.

في حين أنّ النزاعات الأهلية والداخلية أكثر تكراراً على الدوام، إلا أن وقعها الاستراتيجي وتأثيرها العملياتي لا يكاد يظهر انعكاسه على القوات العسكرية الغربية، وبالأخص القوات الأمريكية. فهذه القوات تركز على التهديدات ذات الطبيعة الأكثر تحدياً، والتي تستند إلى الدول والقتال التقليدي العنيف، لأن هذا التركيز كان مسؤولاً جزئياً عن تفوق أمريكا العسكري الساحق اليوم، حيث أن المعيار الدولي هو القدرة التقليدية وإمكانية إبراز قوتها على الصعيد العالمي. بيد أن أولوية الاستثمار إلى جانب قدرات القوات الأمريكية يتوجب عليها أن تتغير نظراً لتأثير ظروف بيئة الصراع الجديدة على وتيرة الصراع وطابعه.

ولقد أشاد بهذه الاستراتيجية بعد نشرها عدد من المحللين الاستراتيجيين من الولايات المتحدة والأجانب لانتقالها إلى ما هو أبعد من مجرد الانشغال بالحرب التقليدية، ولكن حدد هؤلاء المحللون في الوقت عينه ضبابية متزايدة لأشكال الحرب رغم التصنيفات المتميزة التي وُجدت في الاستراتيجية. ومع ذلك فإن الاستراتيجية نفسها تشير إلى أن أكثر المنافسين تعقيداً في المستقبل قد يسعون الى استخدام أنماطٍ متعددة من الحروب على نحوٍ متزامن محققين بذلك التآزر بينهن، ولقد اعترفت الاستراتيجية صراحة بأن فئات المُتحدّين أو المنافسين قد تتداخل، وبأن "التجارب الأخيرة تشير إلى أن الأوضاع الأكثر خطورة تبرز لدى مواجهتنا لتحدياتٍ معقدة. وفي المستقبل قد يسعى الخصوم ذوي القدرات الى مزج عدة أنماط من الحروب من بينها القدرة التخريبية المخلة بالتوازن مع أشكال الحروب التقليدية وغير النظامية وحتى الكارثية".[٥]

وهذا يتطابق مع أراء العديد من المحللين العسكريين الذين اقترحوا بأن نزاعات المستقبل ستأتي بأشكال متعددة وأنماط متباينة بعيداً عن الأنماط البسيطة من الحروب، ولهذا فإن العديد من

[5] National Defense Strategy (Washington, DC: U.S. Department of Defense, 2005), 4.

المحللين يطالبون بقدرٍ أعظم من الاهتمام لتزايد ضبابية واختلاط أشكال الحرب المتشكلة بأمزجة متزايدة من الفتك والتكرار، وهذا التشكيل يوصف في أغلب الأحيان بأنه "الحرب الهجينة"، والتي يغلب فيها أن يقدم الخصم تهديداتٍ مختلطةٍ أو هجينةٍ فريدة، تستهدف على نحوٍ خاصٍ نقاط الضعف الأمريكية. وبدلاً من أن نجد خصوما متفرقين بأساليب مختلفة جوهرياً سواءٌ كانت تقليدية أو غير نظامية أو إرهابية، فبوسعنا أن نتوقع مواجهة خصوم يوظفون كل أشكال الحرب والتكتيكات معا في آن واحد، ويمكن أيضاً اعتبار النشاط الإجرامي جزءاً من هذه المشكلة، لأنه إما أن يزيد من زعزعة استقرار الحكومة المحلية أو يُحرض المتمردين أو المقاتلين الغير نظاميين عن طريق توفير الموارد التي يمكن أن تشمل التهريب، أو الإتجار بالمخدرات، أو النقل غير القانوني للذخائر أو الأسلحة المتطورة أو استغلال شبكات الإجرام الحضرية.

لذا فقد أبرز عدد من المحللين عدم وضوح الخطوط الفاصلة بين أساليب الحرب، وهم يقترحون أن أعظم تحدياتنا في المستقبل لن تأتي من دولة تختار مقاربة واحدةً، بل من دول أو جماعاتٍ تختار ما بدا لها من قائمة التكتيكات والتقنيات الحديثة الكاملة، وتمزج بينها بطرقٍ إبداعيةٍ تتماشى سويةً بما يتماشى مع ثقافتها الاستراتيجية وجغرافيتها وأهدافها. وكما كتب مايكل إيفانس من أكاديمية الدفاع الأسترالي قبل مدة من مراجعة الدفاع التي تجري كل أربع سنوات: "إن إمكانية استمرار الصراع المسلح المتناثر وتداخلاتها الضبابية في الوقت والزمان، والتي تُشنّ على عدة مستويات من قبل الجيوش القومية والمليشيات المحلية تعني أن الحرب ستتجاوز على الأرجح التقسيمات المعروفة إلى فئات مختلفة"[٦].

أقر العديد من العلماء بالمزج والخلط المحتمل في الصراعات المستقبلية، ولقد اعترف "كولين جراي" بإحدى المزايا حسب قوله: "نستطيع التنبؤ واثقين أن الأمر سينحدر إلى مزيدٍ من الضبابية لتصنيفات الحروب أكثر فأكثر".[٧] ولقد مضى الضباط البريطانيون والاستراليون قدماً وبدأوا في العمل الشاق لتحديد الآثار والقدرات اللازمة للعمل بفاعلية ضد التهديدات الهجينة. حيث تجاوز البريطانيون كُتّاب المذهب العسكري الأمريكي، وأدمجوا بالفعل التهديدات الهجينة داخل هيكلية

6 Michael Evans, "From Kadesh to Kandahar: Military and the Future of War," Naval War College Review (Summer 2003), 136.

7 Coiin S.GRAY.Another Bloody Century; Future Warefare (London; Weidenfeld & Nicolson,2006).

الحرب غير النظامية[٨]، فيما لا يزال المحللون العسكريون الاستراليون ماضين قدماً في سيرهم للتحقيق في هذا المجال.[٩]

على اليمين صورة لإطلاق جنود الفرقة ١٠١ المحمولة جواً صاروخ على مبنى في الموصل بالعراق حيث تحصن بالمبنى قصي وعدي نجلا صدام حسين في يوليو ٢٠٠٣

وبالنسبة للمنظّرين المسؤولين عن البحث والتفكير في أحدث أساليب الحرب البديلة وما يرتبط بها من تبعياتٍ تنظيمية، فهم يواصلون استكشاف ضبابية أنماط الصراع، ومنهم جون أركيولا - الخبير في الحروب غير النظامية- الذي يخلص إلى أن "الشبكات أظهرت القدرة على شن الحروب ضد الدول محققة بعض النجاحات... وأن مدى الخيارات المتاحة للشبكات يغطي جميع أطياف الصراعات، مع إمكانية تمييع الحدود الفاصلة بين الحروب والتمردات والإرهاب.[١٠]

وقد أُجريت بعض البحوث حول الحروب الأهلية باعتبارها صراعاتٍ هجينةٍ، فيما ركزت بحوثٌ أخرى على طبيعة المجتمعات المعنية. ولكن الحروب والصراعات الهجينة ليست محض صراعات بين الدول وغيرها من الجماعات المسلحة، فهي تتميز بتطبيق مختلف أشكال الصراع، وهذا أعظم

[8] Countering Irregular Activity Within a Comprehensive Approach, Joint Doctrine Note 2/07, United Kingdom, March 2007, 1–15.

[9] Michael G. Krause, "Square Pegs for Round Holes?" Australian Army, Australian Land Warfare Studies Centre, Working Paper No. 132, June 2007.

[10] John Arquilla, "The End of War As We Knew It," Third World Quarterly 28, no. 2 (March 2007), 369

ما يميز التهديدات والصراعات الهجينة. وهذا الأمر صحيح كون الحروب الهجينة من الممكن أن تُدار من قِبَل الدول ومجموعة متنوعة من الجهات الفاعلة غير الحكومية، وتشمل التهديدات الهجينة مجموعة كاملة من أساليب الحرب، بما في ذلك القدرات التقليدية، والتكتيكات والتشكيلات غير النظامية، والأعمال الإرهابية التي تشمل العنف العشوائي والإكراه، والفوضى الإجرامية.

ويمكن الاضطلاع بهذه الأنشطة المتعددة الأنماط بواسطة عدة وحدات منفصلة، أو حتى بواسطة وحدةٍ واحدة، ولكنها تُدار وتُنسق عموماً من الناحية العملياتية ومن الناحية التكتيكية داخل ساحة المعارك الرئيسية لتحقيق آثارٍ مضاعفةٍ في الأبعاد المادية والنفسية للصراع، والتي يمكن أن تنعكس على جميع مستويات الحرب، ومن ثم فإن انضغاط (تشابك) مستويات الحرب معقدٌ بسبب التقارب المتزامن بين تلك الأنماط.

إن حداثة هذه الأمزجة والتكيفات المبتكرة للأنظمة القائمة بفعل التهديد الهجين تشكل تعقيدات أخرى. وكما أشار أحد الطلبة المتعمقين بشؤون الحروب: "يمكن للقوى الهجينة أن تدمج دمجاً فعالاً النظم التقنية المتطورة في هيكل قواتها واستراتيجيتها، وأن تستخدم هذه النظم بطرق تتجاوز معايير التوظيف المقصودة، ومن الناحية العملية تتفوق القوات العسكرية الهجينة على القوات الغربية ضمن طيفها العملياتي المحدود."

الحروب الهجينة ليست بالجديدة، ولكنها مختلفة. ففي هذا النوع من الحروب، تصبح القوات متداخلة مع القوات <التقليدية> نفسها أو تتداخل معها في نفس ساحة المعركة. إن الجمع بين قدرات القوات غير النظامية والتقليدية سواء كانت متكاملة من الناحية العملياتية أو من الناحية التكتيكية يمثل تحديا كبيراً، ولكنه من الناحية التاريخية لا يُعدُّ ظاهرة فريدة.

واجه البريطانيّون تهديدًا هجينًا في بداية القرن الماضي عندما استخدم البوير[١١] بنادق الماوزر ومدافع كروب الميدانية وتفوقوا في المدى على خصومهم من ذوي الرداء الأحمر (الجنود البريطانيين). وفي نهاية المطاف، تكيف البريطانيون ودحروا قوات الكوماندوز التابعة لبوير. أيضا من المحتمل أن يكون دفاع الشيشانيين العنيف عن غروزني (عاصمة الشيشان) هو دراسة حالة

[١١] حرب البوير الثانية، وتعرف أيضاً باسم حرب جنوب أفريقيا أو حرب الأنجلو بوير، يدعوها الأفريكان كذلك بحرب الاستقلال الثانية، هي حرب امتدت من ١١ أكتوبر ١٨٩٩ إلى ٣١ مايو ١٩٠٢، بين الإمبراطورية البريطانية ضد وجمهوريتي البوير وجمهورية جنوب أفريقيا وجمهورية البرتقال الحرة، وانتهت بانتصار الجيش البريطاني.

هجينة أخرى. فكلا الصراعين كان دموياً ومطولا وتطلب موارد عسكرية وقدراتٍ قتالية أكثر من تلك التي قد تتضمنها مكافحة تمردٍ تقليدية والدليل الميداني ٣-٢٤ لمكافحة التمرد.

الحروب المركبة.

لاحظ المؤرخون أن العديد من الحروب -إن لم يكن معظمها- تتميز بعمليات نظامية وغير نظامية، وعندما تحدث درجة كبيرة من التّنسيق الاستراتيجي بين القوات النظامية وغير النظامية في الصراعات فإن هذه الحروب يُمكن أن تُعدّ "حروباً مركبة". والحروب المركبة هي تلك الحروب الكبيرة التي لها عناصر نظامية وغير نظامية تقاتل في نفس الوقت ولذات الغاية[١٢]. وتتولد الآثار الإضافية للحروب المركبة من قدرتها على استغلال مزايا كل نوع من أنواع القوات، وزيادة طبيعة التهديد الذي تشكله. تهاجم القوة غير النظامية المناطق الضعيفة مما يجبر الخصم التقليدي على بعثرة قوات الأمن التابعة له، بينما تدفع القوة التقليدية الخصم عموماً للتحشدّ بغرض الدفاع أو السعي للحصول على كتلة (حشد) حرجة بغرض تنفيذ عملياتٍ هجومية حاسمة. وبوسعنا أن نرى هذا في الثورة الأميركية عندما وقفت قوات جورج واشنطن الأكثر تقليدية كقوةٍ بارزةٍ في قسم كبير من الحرب، في حين اتسمت حملة ولاية كارولينا الجنوبية بالمليشيات وبعض المجموعات القتالية غير النظامية[١٣].

كثيرا ما يُنظَر إلى عصر نابليون من جهة الجيوش الضخمة التي جابت أوروبا طولاً وعرضاً. ولكن الغزو الفرنسي لإسبانيا تحول إلى مستنقع عميق، حيث تنازع البريطانيون والفرنسيون السّيطرة على المدن الكبرى، في حين نجحت العصابات الإسبانية في مضايقة خطوط الاتصال (الإمداد). وهنا أيضا تحقق التنسيق الإستراتيجي، ولكن على نطاقٍ أوسعٍ ممتدٍ عبر ساحات حرب مختلفة[١٤]. وعلى نحو مماثل تشكلت الحرب الأهلية الأميركية من خلال معارك شهيرة في تشانسيلورسفيل وجيتيسبرغ، وفيكسبرغ، وأنتيتام. ورغم ذلك فإن حروب الأنصار والوحدات

[12] Thomas Huber, Compound Wars: The Fatal Knot (Fort Leavenworth, KS: Command and General Staff College, 1996).

[13] John Grenier, First Way of War: American War Making on the Frontier (New York: Cambridge University Press, 2005); Terry Golway, Washington's General: Nathanael Green and the Triumph of the American Revolution (New York: Henry Holt, 2005).

[14] Charles J. Esdaile, Fighting Napoleon, Guerrillas, Bandits and Adventurers in Spain 1808–18

الشهيرة مثل كتيبة جون موسبي ٤٣ خيالة من ولاية فرجينيا كانت بمثابة قوة أقل تقليدية كوسيلةٍ تحقق الاقتصاد بالقوة.

إن الدور الذي لعبه "تي أي لورانس" كمستشار للثورة العربية ضد العثمانيين يشكل حالة كلاسيكية أخرى من حالات الحرب المركبة، والتي ساعدت مادياً اندفاع الجنرال "إدموند ألنبي" بقوات الحملة البريطانية نحو القدس ودمشق، ولكن ولمرةٍ أخرى لم تحارب عصابات لورانس جنباً إلى جنب مع البريطانيين؛ بل كانوا خاضعين لتوجيهات استراتيجية من قِبَل البريطانيين الذين زودوهم بالمستشارين والأسلحة والذهب فقط.[١٥] وتشكل فيتنام حالة كلاسيكية أخرى للتعاون الإستراتيجي الذي خلقته الحروب المركبة عن طريق انتهاجها للتكتيكات غير النظامية للفيت كونغ إلى جانب القدرات التقليدية لجيش فيتنام الشمالي.[١٦]

كان الغموض الذي اكتنف المقاربات التقليدية وغير التقليدية من بين كل هذا يزعج المخططين العسكريين لسنوات عديدة، حيث أنهم حتى بعد ذلك بوقت طويل، استمروا في الجدال في نوع الحروب التي خاضوها وخسروا فيها.[١٧]

الحروب الهجينة.

الحروب الهجينة صعبةٌ مثل الحروب المركبة، حتى أن عملية الدمج بين القدرات التقليدية وغير النظامية في الصراعات الهجينة أكثر تعقيداً. فالحروب المركبة توفر المضاعفة والمزج على المستوى الإستراتيجي، إلا أنّها لا توفر التعقيد والانصهار والمزامنة الذي نتوقعه على المستويات النظرية بل وحتى التكتيكية في الحروب، حيث يمزج أحد طرفي الصراع أو كلاهما سلسلةً من الأساليب والأنماط المختلفة في ساحةٍ معركةٍ واحدةٍ <كما في الحرب الهجينة>. فالقوات غير النظامية في حالات الحروب المركبة تعمل إلى حدٍ كبيرٍ كوسيلةٍ للتشتيت أو للاقتصاد بالقوة في مسرحٍ منفصلٍ أو منطقة عملياتٍ مجاورةٍ بما في ذلك الخطوط الخلفية، ولأنه يعتمد على قواتٍ مستقلةٍ من الناحية العملياتية، فإن المفهوم المركب لم يبرز في أنماط الاندماج أو التمييع التي تم تحديدها في دراسات حالات سابقة مثل "حزب الله" في حرب لبنان الثانية لعام ٢٠٠٦ أو التوقعات المستقبلية.

---

[15] (New Haven: Yale University Press, 2004), 154–155. 14 Jeffrey D. Wert, Mosby's Rangers (New York: Simon & Schuster, 1991).

[16] B.H. Liddell Hart, Lawrence of Arabia (New York: De Capo, 1989).

[17] Harold G. Moore and Joseph L. Galloway, We Were Soldiers Once . . . and Young: Ia Drang—The Battle That Changed the War in Vietnam (New York: Random House, 1992).

إن المستقبل لا يُبشّر أن الخصوم القادمين سيتحولون إلى أنواع مميزة وأنماط واضحة من القتال. سيبقى الصراع التقليدي يشكل أخطر أشكال الصراع البشري، ولا سيما من حيث ضخامته، ومع ذلك فسيتزايد احتمال مواجهة خصومٍ يستخدمون أساليب وأنماط قتاليةٍ مختلطةٍ وضبابية. وإن أكثر التغيرات تميزاً في طبيعة الحرب الحديثة هو الطبيعة الضبابية أو المختلطة للقتال ونحن لا نواجه عدداً متزايداً من التحديات الظاهرة الصريحة، بل نواجه تحولهم إلى تحدياتٍ هجينة.

إن هذه الحروب الهجينة تمزج بين فتك الصراع الدولي وبين الحروب غير النظامية للجماعات المسلحة المتطرفة المتحمسة. ففي مثل هذه الصراعات، سيستغل خصوم المستقبل (من الدول، أو الجماعات التي ترعاها الدول، أو الجهات الفاعلة ذاتية التمويل) قابليةَ الوصول إلى القدرات العسكرية الحديثة، بما في ذلك أنظمة القيادة المشفرة، وصواريخ الجو-أرض المحمولة على الكتف، وغير ذلك من الأنظمة الفتاكة الحديثة، فضلاً عن تشجيع حركات التمرد المطولة التي تستخدم الكمائن والعبوات الناسفة والاغتيالات القسرية. ويمكن أن يشمل ذلك قيام الدول بمزج القدرات التقنية العالية مثل الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية مع الإرهاب والحرب الإلكترونية الموجهة ضد الأهداف المالية. ولا تقتصر التحديات الهجينة على الجهات غير الحكومية حيث أن بوسع الدول أن تحول وحداتها التقليدية إلى تشكيلات غير نظامية وأن تتبنى تكتيكاتٍ جديدةً كما فعل الفدائيون في العراق عام ٢٠٠٣. وتشير أدلةٌ من مصادر مفتوحة إلى أنّ العديد من القوى في الشرق الأوسط تعمل على تعديل قواها لاستغلال هذا النمط الأكثر تعقيداً وانتشاراً بين النزاعات، وقد نجد من المحير على نحوٍ متزايدٍ أن نصِف قوات دولٍ بأنها قواتٌ تقليديةٌ في الأساس، أو أن نصف جهاتٍ فاعلةٍ غير حكوميةٍ بأن طبيعتها غير نظامية بشكلٍ واضح. إن التحديات المستقبلية ستطرح مجموعة أكثر تعقيداً من الهياكل والإستراتيجيات البديلة كما رأينا في المعركة بين إسرائيل وحزب الله عام ٢٠٠٦. وقد دمج هذا الأخير بالفعل بين قوات الميليشيات مع المقاتلين المدربين تدريباً عالياً ومع فرق الصواريخ المضادة للدبابات في المعركة، وقد أظهر حزب الله بوضوح قدرة الجهات الفاعلة غير الحكومية على دراسة جوانب الضعف التي تعاني منها المؤسسات العسكرية الغربية، وتفكيكها واتخاذ التدابير المضادة المناسبة.

ويتم تضمين الدروس المستفادة من هذه المواجهة بالفعل ضمن دولٍ أخرى وجهاتٍ فاعلة غير حكوميةٍ أخرى، فبرعاية الدولة أو بدونها، تتزايد قدرة الجماعات المنظمة وفتكها في حين تتزايد الحوافز التي تدفع الدول إلى استغلال أنماط الحرب غير التقليدية. وسيتطلب ذلك تعديل عقلياتنا فيما يتعلق بالتهديدات النسبية للصراع وتواترها في المستقبل. إن التكتيكات غير النظامية والأشكال المطولة من الصراع كثيراً ما تُغفَل وتوصف بقدر عظيم من الانتقاد باعتبارها تكتيكات للضعفاء الذين توظفهم جهات فاعلة غير حكومية لا تملك الوسائل اللازمة للقيام بأي شيء آخر.

فبدلاً من الضعف، قد يستغل خصوم المستقبل مثل هذه الوسائل بسبب فعاليتها، وقد يُنظَر إليها باعتبارها تكتيكات ذكية ولماحة، وقد نجد في المستقبل المزيد من الأدلة التي تشير إلى أن التهديدات الهجينة فعّالة حقاً ضد المنظمات الضخمة والمترهلة والمترابطة هرمياً والتي تتسم بالجمود العقلي أو العقائدي.

وقد رفض بعض المحللين في إسرائيل فوراً الطابع الفريد لحزب الله، حيث قاموا بالتركيز عن طيب خاطر على أوجه القصور في القيادة السياسية والعسكرية.[١٨]وهذا مرض قاتل للمخططين العسكريين، وهو مرض لا يمكن إلا أن يفيد حزب الله في المستقبل. وعلى حد تعبير ونستون تشرشل: "على الرغم من استيعاب قائد ما لأفكاره الخاصة، فمن الضروري في بعض الأحيان أن نضع العدو في الحسبان".

ولذلك أيضاً يتعين على المؤرخين العسكريين أن يبذلوا جهوداً جبارةً في استخلاص الدروس من التاريخ الحالي. وقد أجرى راسيل جلين –الضابط في الجيش الأمريكيّ المتقاعد والذي يعمل الآن مع راند - تقييمًا موضوعيا استنتج فيه أن حرب لبنان الثانية كانت مغايرة تماماً، وأن محاولات التركيز على الحلول التّقليديّة المحضة كانت عديمة الجدوى. فضلاً عن ذلك، وكما استنتج راسيل ورالف بيترز في وقتٍ سابقٍ، فإن هذا الصراع ليس مجرد شذوذ بل نذيرٌ بما سيأتي. وكما لخّص جلين في كتابه (المجد إلى زوال)، فإن "الصراع في القرن الحادي والعشرين كان حتى الآن أشبه بما نستطيع أن نطلق عليه الحروب الهجينة ".[١٩]

[18] Avi Kober, "The Israel Defense Forces in the Second Lebanon War: Why the Poor Performance," Journal of Strategic Studies (February 2008), 3–40. 1

[19] Russell W. Glenn, All Glory Is Fleeting: Insights from the Second Lebanon War (Santa Monica, CA: RAND, 2008), 73.

حرب لبنان الثانية ٢٠٠٦.

يمثل حزب الله ذو الهيكلية الزئبقية التهديد الهجين الصاعد، فقد كشفت المعركة التي استمرت ٣٤ يوماً في جنوب لبنان عن بعض نقاط الضعف في موقف الجيش الإسرائيلي، وهذا ما كان له تأثيرٌ في ذات الوقت على مخططي وزارة الدفاع الأمريكية.. فالخلط بين حركة سياسية منظمة وخلايا لا مركزية تستخدم تكتيكات تكيفية في مناطق غير محكومة، كشف بأن حزب الله قادرٌ على إنزال الضربات مثلما هو يتلقاها. فقد كانت خلاياه الموزعة عالية الانضباط والتدريب تنازع السيطرة على الأرض ضد قوة تقليديةٍ حديثةٍ مستخدمةً مزيجاً من تكتيكات العصابات والتقنيات في المراكز الحضرية المكتظة بالسكان. وقد استغل حزب الله -مثله مثل المقاتلين الإسلاميين المتطرفين في المعارك التي دافعوا فيها عن الفلوجة في العراق خلال شهري أبريل/نيسان ونوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٤- الأراضي الحضرية بمهارة لنفيذ الكمائن وتجنب الكشف وإقامة تحصينات دفاعية قوية بالقرب من المدنيين.[٢٠] وعلى الصعيد الميداني، اعترفت القوات الإسرائيلية على مضض بأن مقاتلي حزب الله عنيدون وماهرون.[٢١] وكانت المقاومة المنظمة أصعب بكثير من عمليات مكافحة الإرهاب في الضفة الغربية وقطاع غزة. والأهم من ذلك أن درجة التدريب والانضباط الناري والتقنية الفتاكة التي أظهرها حزب الله كانت أعلى بكثير.

[20] Andrew Exum, Hizballah at War: A Military Assessment, Policy Focus #63 (Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, December 2006), 9–11.

[21] Matthew Stannard, "Hezbollah wages new generation of warfare," San Francisco Chronicle, August 6, 2006; Jonathan Finer, "Israeli Soldiers Find a Tenacious Foe in Hezbollah," The Washington Post, August 8, 2006, 1.

وكان التخطيط التكتيكي والتطبيقات الجديدة للتقنيات من جانب المدافعين جديراً بالملاحظة. وعلى وجه الخصوص منظومات الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات التي استخدمها حزب الله في استهدافه لمدرعات الجيش الإسرائيلي والمواقع الدفاعية المقترنة بتكتيكات لا مركزية؛ حيث دُمّر وأُعطب في معركة وادي سلوقي رتلٌ من الدبابات الإسرائيلية في أرضه بدقة بالغة.[٢٢]

تضمنت أسلحة حزب الله المضادة للدبابات آر بي جي-٢٩ الروسية الصنع، وميتس الروسية (AT-13)، وكورنيت AT-14 التي يبلغ مداها ٣ أميال. ووجد الجيش الإسرائيلي بأن لـ AT-13 و AT-14 قوةً هائلةً ضد الخط الأول من دبابات مركافا مارك الرابع، حيث أُصيبت ١٨ دبابةً من طراز ميركافا بأضرار، ويُقدر بأن القذائف الموجهة المضادة للدبابات تسببت في ٤٠ في المائة من قتلى الجيش الإسرائيلي، وهنا نرى اختلاط الأنظمة التقليدية مع القوى غير النظامية والتكتيكات غير التقليدية.

حتى أن حزب الله تمكن من إطلاق بضع مركبات جوية مسلحة بدون طيار، مما تطلّب من الجيش الإسرائيلي أن يتكيف من أجل كشفها. وكان من بين هؤلاء المرصاد الإيراني -١ أو أبابيل-٣. وهذا ما أقلق المخططين الاستراتيجيين الإسرائيليين، حيث أن نظام الطائرتين الملاحي قائمٌ على نظام تحديد المواقع العالمي بمدى يبلغ ٤٥٠ كيلومتراً، كما أنها قادرة على حمل متفجرات تزن ٥٠ كيلوغراماً.[٢٣]

هناك أدلة تشير إلى أن حزب الله استثمر في استخبارات الإشارة وفي مراقبة مكالمات الجيش الإسرائيلي عبر الهواتف الخلوية لبعض الوقت، وأفادت أيضاً تقاريرٌ غير مؤكدة أن الحزب تمكن من فك تشفير مكالمات الراديو التي كان يستخدمها الجيش. ويبدو بأنّهم امتلكوا أنظمة مراقبةٍ متقدمةٍ، كما كان لدى المدافعين معدات رؤيةٍ ليليةٍ متطورة للغاية، بالإضافة لاستخدام حزب الله

[22] Judith Palmer Harik, Transnational Actors in Contemporary Conflicts: Hizbullah and its 2006 War with Israel (Cambridge: Harvard University Press, March 2007), 14; Exum, 9–14

[23] Exum, 5; see also Harik, 19–20.

صواريخ الكروز المضادة للسفن من طراز C802 الموجهة ضد سفينة صواريخٍ إسرائيليةٍ، والتي تمثل عينة أخرى مما نسميه "حربا هجينة"، وهو أمر وثيق الصلة بالمحللين البحريين أيضاً.

ولعل قدرة حزب الله الفريدة تتلخص في مخزونه الذي يحوي ١٤ ألف صاروخٍ، وإن كان العديد منها غير دقيقٍ نسبياً ومن طرازاتٍ قديمة، ولكن بفضل الدعم الإيراني والسوري، فإن الحزب قد امتلك عدداً من طرازات أنظمة الصواريخ التي كان من الممكن أن تصل إلى عمق إسرائيل، وقد استخدمها الحزب لإرهاب السكان المدنيين والهجوم على البنية التحتية العسكرية الإسرائيلية. حيث تمكن من إطلاق أكثر من ٤١٠٠ صاروخ في الفترة ما بين ١٢ يوليو/تموز و١٣ أغسطس/آب، لتبلغ ذروتها برقم ٢٥٠ صاروخاً أُمطرت بها إسرائيل في اليوم الأخير، وهذا المعدل هو الأعلى على الإطلاق في الحرب. وكانت أغلب هذه الصواريخ قصيرة المدى وغير دقيقة، ولكنها حققت آثاراً استراتيجيةً في المجال المادي، إلى جانب إرغامها إسرائيل على إجلاء عشرات الآلاف من المواطنين، كما أثرت في المجال الإعلامي من خلال إظهار قدرت الحزب على شن هجوم ضد المؤسسة العسكرية الأقوى في المنطقة.

وقال رالف بيترز الذي زار لبنان أثناء القتال بأن "حزب الله" أظهر مرونة ملفتة نظرا لاعتماده على قدرة خلاياه في الاحتشاد لتنفيذ عملياتٍ محددةٍ بسرعةٍ، وقدرتهم أيضا على الانعزال عن بعضهم البعض والعمل بشكل مستقل بعد فتح مخزونات الأسلحة والذخائر الموجودة مسبقاً. وكانت الخلايا القتالية لحزب الله عبارة عن مزيج من العصابات والقوات النظامية، وهو شكل من أشكال المقاومة التي من المرشح أن يواجهه الجيش الأمريكي مستقبلاً على نحوٍ متزايدٍ.[٢٤]

الآثار المترتبة.

إن صعود الحروب الهجينة لا يمثل نهاية الحروب التقليدية، ولكنها ستعقد التخطيط الدفاعي في القرن الحادي والعشرين مما قد يسبب آثارا كبيرة. كتب جون أركيلا -من كلية الدراسات العليا البحرية -: "في حين أن التاريخ يقدم أمثلة مفيدة لتحفيز التفكير الاستراتيجي للتعامل مع مثل هذه المشكلات، فإن مجابهة الشبكات التي يمكن أن تحارب بطرق مختلفة كثيرة -مستخدمةً أشكال متعددة وهجينة من الصراع- ستتطلب المزيد من التفكير الإبداعي".[٢٥]

[24] Ralph Peters, "Lessons from Lebanon: The New Model Terrorist Army," Armed Forces Journal International (October 2006), 39.

[25] Arquilla, 369.

ولقد بدأنا هذا التفكير للتو، حيث أن أي قوة مستعدة لمعالجة التهديدات الهجينة يجب أن يتم تأسيسها تأسيساً عسكرياً محترفاً وصلباً، وعليها أيضاً أن تمتلك المهارات المعرفية المتفوقة اللازمة للتعرف على هذه التهديدات، وأن تكون قادرة على التكيف بسرعة مع المجهول.[٢٦]

قوات المارينز تساعد المدنيين العراقيين النازحين بالقرب من الناصرية خلال عملية حرية العراق في مارس ٢٠٠٣

ربما يتعين أن نضاعف جهودنا لتنقيح عملنا في الفن العملياتي، فلقد أتقنا التصميم العملياتي في الحرب التقليدية، ومؤخراً أعدنا تنشيط فهمنا لحملات مكافحة التمرد، ولكن ليس من الواضح كيف قمنا بتكييف تخطيط حملاتنا للمزج بينهما. السؤال الذي يطرح نفسه: ما هو مركز الثّقل في مثل هذه الصراعات الذي يتطلب منا أن نصرف تركيزنا على النهج الحكومي الشامل وخطوط العمليات؟

إن النجاح في الحروب الهجينة يتطلب أيضاً عدداً من قادة الوحدات الصغيرة من ذوي المهارات في صنع القرار وأصحاب الدهاء التكتيكي للرد على المجهول، بالإضافة لمجموعة أجهزةٍ معدةٍ للاستجابة والتكيف على نحوٍ أسرع من عدو المستقبل. ستزداد أهمية التعلم والتّكيف التنظيمي، كما سيحدث استثمار واسع النطاق في التجارب التعليمية المتنوعة.[٢٧] بحيث ينبغي البحث عن

[26] David C. Gompert, Heads We Win: The Cognitive Side of Counterinsurgency (COIN), Santa Monica, CA: RAND, Counterinsurgency Study Occasional Paper 1, 2007.

[27] Michael Evans, From the Long Peace to the Long War (Canberra: Australian Defence College, 2007). See also David Betz, "A Real Revolution in Military Affairs," paper delivered at the Marine Corps Training and Education Command Conference, "Pedogology for the Long War," October 29–31, 2007, Quantico,VA.

الآليات المؤسسية التي نحتاج إليها لكي نكون أكثر تكيّفاً، وعن العوائق التي تفرضها مركزية وزارة الدفاع -إن لم يكن جمودها- والتي ينبغي أن تُطرَح جانباً.

إن أعظم الآثار المترتبة هي أن نبحث عن حماية قواتنا، خاصةً مع انتشار العبوات الناسفة. سيركز أعداؤنا على محاولة كسب الصراع ما بين قابلية الحركة وعرقلة الحركة، وذلك بغرض حرماننا من مبدأ حرية العمل ومنعنا من الاقتراب من السّكان المدنيين. إن قدرة التحديات الهجينة على استغلال مدى ودقة الأنواع المختلفة من الصواريخ وقذائف الهاون والألغام سوف تتزايد بمرور الوقت وتعيق خططنا. إن حريتنا في العمل في المستقبل وقدرتنا على عزل المعارضين عن السكان المدنيين ستكون في موضع شك.

بالإضافة إلى أن استغلال تقنية المعلومات الحديثة سيعزز من دورة تعلم الأعداء الغير نظاميين المحتملين، وستُحسن من قدرتهم على نقل الدروس المستفادة والتقنيات من مسرح إلى آخر. وقد تسارعت هذه العملية، كما تم مشاهدة تطور دورة التعلم هذه بالفعل في العراق وأفغانستان، حيث بدا بأن المتمرّدين قد تعلموا واستخدموا الأساليب التكتيكية استخداماً فعالاً، كما قاموا بتكييف أجهزة تفجير مبتكرة استمدوها من الإنترنت، إضافة لاستخدامهم "الملاحظة" من مصادر مختلفة.

سيظل هذا النوع من الخصوم مراوغا حيث سيستمر في العمل بطريقة متناثرة للغاية، وسيعكس درجة عالية من التكيف والسعي لكسب أي فرصٍ للتعلم. لذا يجب أن تتكيف القوّات المسلّحة الأمريكيّة والقوّات المسلّحة الغربيّة أيضًا. وعلى حد تعبير أحد الضباط الأستراليين: ما لم نتكيف مع خصم اليوم المتغير وأنماط الصراع البشري المندمجة "فنحن أشبه ما يكون بمن يحاول الحفاظ والتحديث لمفتاحٍ ثمينٍ من العصر الصناعي، ولكننا نستحق النقد على محاول إدخاله في قفلٍ معاصرٍ لا يناسبه ومتزايد التعقيد."[٢٨]

تدرك وزارة الدفاع الحاجة إلى منهجية جديدة في التفكير، وقد بدأت بالفعل استكشاف طبيعة ذلك التحدي الهجين، حيث بادر مكتب وزير الدفاع بتقديم مشروعٍ بحثيٍ مستمرٍ يتضمن سلسلة من تمارين ألعاب الحرب المشتركة، وتقوم قيادة القوّات المشتركة الأمريكيّة باستكشاف الآثار المترتبة أيضًا، كما أن مشاة البحريّة (المارينز) يفعلون نفس الأمر. ولكن التحدي يؤثر على كل أفرع

[28] Krause, v; David Betz, "Redesigning Land Forces for Wars Amongst the People," Contemporary Security Policy 28, no. 2 (August 2007), 221–243.

الجيش، وليس فقط على القوات البرية. إن استخدام حزب الله للصواريخ بعيدة المدى، والطائرات المسيرة المسلحة، وصواريخ كروز المضادة للسفن لابد وأن يشكل تحذيراً للجنة المشتركة بأجمعها. وقد انعكس فهم الفروع البحرية لهذا التحدي في الاستراتيجية البحرية القومية: "إن ما يميز الصراعات بشكل متزايد هو: مزيج مختلط من التكتيكات التقليدية وغير النظامية، بالإضافة للتخطيط، والتنفيذ اللامركزي، والجهات الفاعلة غير الحكومية، واستخدام التقنيات البسيطة والمتطورة بطرق مبتكرة."[٢٩]

لن يكون من السهل تصنيف صراعات الغد إلى تقليدية أو غير نظامية، فالطابع الناشئ للصراع ينبئ بتعقيد أكثر من ذلك. ومسألة الاختيار بين صراع كبير وتقليدي أو ما يوازيه من آخر صغير وغير نظامي؛ أضحت أسلوباً تبسيطياً مخلاً. ولا تستطيع الولايات المتحدة أن تصنف كل التهديدات في المستقبل على أنها تهديدات قائمة على الدولة أو تقليدية تماماً، ولا ينبغي لها أن تفترض أيضا أن الصراع القائم على الدولة قد أُلقي إلى مزبلة التاريخ، فلقد ارتكب العديد من الناس هذا الخطأ من قبل. صحيحٌ أن احتمالية حدوث الصراعات القائمة على الدول أقل الآن، ولكنها لم تنعدم. ولا ينبغي لنا أن نفترض أيضاً أن كل الحروب التي ستقوم بها الدولة ستكون تقليدية تماما. وكما يوحي هذا المقال، فمستقبلاً ستتشكل خصومنا بأمزجةٍ واندماجات مختلفة.

أقر العديد من المحللين الأمنيين بتميع الخطوط الفاصلة بين أنماط الحروب،[٣٠] فبفضل حزب الله تحول التحدي الهجين من فكرة إلى واقع. كما أدرك عدد متزايد من المحللين في واشنطن أن الجدال حول الاستعداد إما لمكافحة التمرد أو عمليات الاستقرار وإما لمواجهة الحروب الكبرى يُعتَبر جدالاً عقيماً لا جدوى منها. إن مثل هذه المناقشة ستؤدي إلى استنتاجات خاطئة بشأن المطالب المستقبلية للجنة الحربية المشتركة. وقد أيد العلماء في كلية الحرب البحرية في نيوبورت وكلية رود آيلاند وكلية كنج لندن هذا المفهوم.[٣١] لقد اختتم ماكس بوت دراسته المطولة للحرب والتقنية بقوله: "إن الحدود بين الصراعات النظامية والغير نظامية تزداد تميعاً، وحتى الصراعات

[29] General James T. Conway, USMC, Admiral Gary Roughead, USN, and Admiral Thad W. Allen, USCG, A Cooperative Strategy for 21st-Century Seapower (Washington, DC: October 2007)..

[30] Thomas G. Mahnken, "Modern War," in The Impenetrable Fog of War: Reflections on Modern Warfare and Strategic Surprise, ed. Patrick M. Cronin (Westport, CT: Praeger Security International, 2006), 15–24

[31] Mackubin T. Owens, "Reflections on Future War," Naval War College Review (Winter 2007); Colonel John J. McCuen, "Hybrid Wars," Military Review (April-May 2008), 107–113.

الغير حكومية تكتسب على نحو متزايد القدرة على الوصول إلى أنواع الأسلحة التي كانت ذات يوم حكراً على الدول. وحتى الدول سوف تتحول على نحوٍ متزايدٍ إلى استراتيجيات غير تقليدية لتخفيف تأثير القوة الأميركية."[٣٢] وهذا من شأنه أن يوسع من فهمنا لما يتعلق ببيئة العمل المشتركة في المستقبل. ومع ذلك، يظل تركيزنا منصبا على الأنماط والأشكال القديمة والمتروكة للحرب، وهذا الاتجاه يغفل التشكيلات الأخطر والأكثر توقعاً.

وقد خلُص خبيران استراتيجيان معتبران إلى أن "الحرب الهجينة ستكون سمة مميزة للبيئة الأمنية في المستقبل".[٣٣] وإذا صح ذلك، فإننا سنواجه مجموعة من التهديدات أوسع نطاقاً وأكثر صعوبة مما يفكر فيه كثيرون في وزارة الدفاع الأمريكية. ولأننا إسبرطيو اليوم، سيكون لزاماً علينا أن نأخذ خطط العدو في عين الاعتبار، وأن نتكيف لنصبح قوةٍ أكثر تعدديةً في الأبعاد أو امتزاجاً كما فعلت إسبارطة من قبل في نهاية المطاف. ولذا يتعين على المنظرين الاستراتيجيين اليوم أن يتذكروا الإسبارطيين المحبطين خارج سور أثينا الطويل، وأن يتذكروا النجاح الدموي الذي حققه البريطانيون والروس والإسرائيليون في حروبهم الطويلة ضد التهديدات الهجينة، وأن يستعدوا وفقاً لذلك.

[32] Max Boot, War Made New: Technology, Warfare, and the Course of History, 1500 to Today (New York: Random House, 2006), 472

[33] Michèle A. Flournoy and Shawn Brimley, The Defense Inheritance: Challenges and Choices for the Next Pentagon Team," Washington Quarterly (Autumn 2008), 63. For additional background, see Greg Grant, "Hybrid Wars," Government Executive (May 2008); and Matthew Rusling, "For the Military, A Future of Hybrid Wars," National Defense (September ٢٠٠٨).